واقع تدريس اللغة العربية في الجامعات الفلـــسطينية

أ.د. محمد جواد النوري
أستاذ في العلوم اللغوية
جامعة النجاح الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسات التعليم العالي في فلسطين:

بدأ الإنشاء الفعلي للجامعات في فلسطين بعد حرب حَزِيران عام 1967م، وإن كانت هناك نواة بسيطة لما يقترب من هذا النوع من التعليم، قد سبقت هذا التاريخ، في جامعة بيرزيت.

لقد أنشئت في الضفة الغربية وقطاع غزة عدة جامعات هي:

1. جامعة الخليل: عام 1971م.
2. جامعة بيرزيت: عام 1972م.
3. جامعة بيت لحم: عام 1973م.
4. جامعة النجاح الوطنية: عام 1977م.
5. الجامعة الاسلامية (غزة): عام 1978م.
6. جامعة بولتكنيك فلسطين: عام 1978م.
7. جامعة القدس: عام 1984م.
8. جامعة الأزهر (غزة): عام 1991م.
9. جامعة القدس المفتوحة: عام 1991م.
10. الجامعة العربية الأمريكية: عام 1997م.
11. جامعة الأقصى (غزة): عام 2000م.

وقد ترسَّمت الجامعات الفلسطينية، منذ تأسيسها، وبخاصةٍ تلك الجامعات التي تمنح درجة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها – ترسَّمت، في وضع الخطوط العامة، أو الأطر العامة للمواد التي تقوم بتدريسها في ميدان اللغة العربية، خطى الجامعات الأردنية بعامة، والجامعة الأردنية بخاصة، باعتبارها الجامعةَ الشقيقة، بل الجامعة الأمَّ ذاتَ التجربة والريادة في هذا المجال. وإذا ما أردنا لكلامنا أن

يكون أكثر تحديداً، فسوف نتخذ من جامعة النجاح الوطنية أنموذجاً للجامعات الفلسطينية لاعتبارات مختلفة، من بينها أنها أكبر الجامعات في فلسطين، وأنها تمنح، إلى جانب درجة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها، درجة الماجستير، وهناك إرهاصات، بدأت تلوح في الأفق، توحي بإمكانية منحها درجة الدكتوراة في هذا الموضوع في قابل الأيام. وإضافة إلى ذلك، فقد واكبْتُ نشأة هذه الجامعة منذ يوم ولادتها، وما زلت أتابع نموها ونماءها حتى الآن.

وعندما نعود إلى المناهج، التي يتناولها طلبة قسم اللغة العربية وآدابها في جامعتنا، والجامعات الفلسطينية الأخرى، والتي يتخرجون بموجبها في جامعاتهم حاملين للقب الجامعي الأول، فإننا نجد فيها نوعاً من التشتت والتوزع بين متطلبات إجبارية، وأخرى اختيارية، وبين متطلبات جامعة، ومتطلبات كلية، بل إن بعض تلك المتطلبات تطلقُ عليها بعض الجامعات اسم متطلبات حرة.

وعندما ندقق النظر فيما يأخذه الطالب في قسم اللغة العربية[1] من موادّ دراسية، فإننا لا نعود إلا بالحسرة والألم، بسبب الكم القليل الذي يدرسه الطالب في ميدان التخصص[2]، بدعوى إعطائه موادَّ دراسية من خارج التخصص لتوسيع مداركه في مجال التاريخ، والجغرافيا، والسياسة، والشريعة، والزراعة، والرياضة، والفنون... إلخ. والحقيقة هي أن الطالب، الذي تتوزع اهتماماته الدراسية، إلى جانب التخصص، بين تلك المواد الثقافية، التي تتسم بكثرة العدد، وقلة عدد الساعات الخاصة بكل واحدة منها، لا تُقَدَّمُ له الفائدةُ الثقافية المرجوةُ منها، وإنما يكون ذلك على حساب المواد التخصصية الأساسية التي ستكون عدته في الأيام القادمة، عندما ينخرط في سلك العمل الرسمي المناسب لشهادته، وهو عمل يكون مجاله، في الأعم الأغلب، التدريس.

إن هذا الطالب، الذي يتخرج في قسم اللغة العربية، بهذا الكم اللغوي والأدبي، حاملاً درجة علمية جامعية، لا يستطيع، فيما أرى، التصدي للمهمة التي سيندب إليها بعد التخرج، والتي تكون، كما ذكرنا آنفاً، مهمة التعليم في المدراس، في الأعم الأغلب.

وإذا كنا لا نقلل من شأن تلك المساقات، والمواد الدراسية الثقافية، التي يرتشفها الطالب من خارج تخصصه على عَجَل، إلا أننا لا نجد فيها، لقلتها، وتشتتها، وتشعبها،

---

[1] يدرس الطالب غير المتخصص في اللغة العربية، من هذه اللغة، ثلاث ساعات معتمدة فقط في جميع سني دراسته في الجامعة.

[2] يتخرج الطالب في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة النجاح الوطنية على سبيل المثال، بعد دراسة (137) ساعة معتمدة، منها (66) ساعة معتمدة متطلبات قسم إجبارية، و(15) ساعة معتمدة متطلبات قسم اختيارية، ثم يدرس (21) ساعة معتمدة متطلبات كلية إجبارية و (6) ساعات معتمدة متطلبات كلية اختيارية و (17) ساعة معتمدة متطلبات جامعة إجبارية و(6) ساعات معتمدة متطلبات جامعة اختيارية، و(6) ساعات معتمدة متطلبات حرة.

ما يشكل رافداً ثقافياً حقيقيا للطالب، وإنما نرى فيها إضاعة لمواد تخصصية لغوية وأدبية، يؤدي عدم أخذ الطالب لها، إلى إضاعة حلقات مهمة من العمود الفِقْري الذي يشكل، في حال اكتماله، التخصص السليم.

وإضافة إلى ذلك، فإن الفترة الزمانية، التي يدرس الطالب خلالها مواد تخصصه، في أقسام اللغة العربية، بناء على نظام الساعات المعتمدة، قليلة، ولا تتيح له التعرف الأكاديمي الحقيقي إلى المادة المدروسة، كما لا تصلح أن تكون أداة فعالة لتحقيق نموه الفكري والعقلي والوجداني، بل إن وقت الطالب، في كل فصل، يضيع جانب مهم منه، دونما طائل علمي، بين تسجيل المساقات، وما يسمى بالحذف والإضافة، والتسجيل النهائي، إضافة إلى فترة الامتحان الأول والثاني، ثم الامتحان الأخير، وخاصة إذا علمنا بأن مدة الفصل لا تتجاوز أربعة أشهر تتخللها، في العادة، مناسبات دينية، ووطنية، وفي بعض الحالات، في فلسطين على نحو خاص، مناسبات احتلالية!!! ولا شك في أن هذا الواقع، وأعني به واقع نظام التدريس بالساعات المعتمدة، وما فيه من ضياع وتشتت، هو واقع مرٌّ وأليم، ومن شأنه أن يضعف مستوى أيِّ طالب، في أية كلية، وفي أية مادة يدرسها، فضلاً عن مواد اللغة العربية.

ويتضح من كلامنا هذا، أن هناك فرقاً بين نظام التدريس السنوي، ونظام التدريس بالساعات المعتمدة، إذ إنَّ النظام الأول، فيما نرى، ومن خلال تتلمذنا عليه أيام الطلب، كان يعقد صلةً وآصرة أشدَّ قوةً بين مواد الدراسة، والقائمين عليها من جهة، والطلبة المتلقين لها من جهة أخرى، في حين يؤدي نظام الساعات إلى التشتت، وضياع الوقت، وقلة المعلومات، وضعف العلاقة بين الطالب وما يأخذه من مادة، ومن يشرف عليه من مدرسين.

وهناك ملحوظة أخرى ذات أهمية بالغة، وهي، في الوقت نفسه، ترتبط بالنقطة السابقة، ونعني بها نوعية الطلبة الذين ينخرطون في تخصص اللغة العربية وآدابها.

إن عدد الطلبة الذين تحملهم أقدامهم، وهم ذاهبون إلى قسم اللغة العربية، بإرادة ذاتية، ورغبة صادقة، وشغف بما سيقبلون عليه، لا يتجاوز في كل عام، فيما أعلم، عدد أصابع اليدين، أما باقي الطلبة، وهم كثر، فإنهم يلجأون إلى قسم اللغة العربية بعد أن توصد في وجوههم أقسام اللغة الإنجليزية، واللغة الفرنسية، والصِّــحافة، وفي بعض الحالات قسمُ علم الاجتماع، وبعد أن يخشوا على أنفسهم من الزجِّ في أقسام أخرى ذات مكانة مرموقة وأهمية بالغة في نظرنا، كأقسام التاريخ، والآثار، والجغرافيا.

وهذا يعني أن السواد الأعظم من الطلبة المسجلين في أقسام اللغة العربية، ينخرطون في هذا التخصص، وهم عنه راغبون، وفي مواده اللغوية بل الأدبيةِ زاهدون. ومن هنا تبدأ المشكلة، وينشأُ الصراع بين الواقع الذي يعايشه الطالب مرغما، والرغبة التي يرنو إلى تحقيقها يائسا. ولا إخال إنساناً يقبل على أمر، أو يمارس عملاً، وهو عازف عنه، وزاهد فيه، يمكن أن يأخذ منه ما يفيد به نفسه، وأن يقدم منه، بالتالي، ما سينفع به غيره، لأن فاقد الشيء، كما قالوا قديماً، لا يعطيه.

وإضافة الى ما سبق، فإن معظم الطلبة، الذين يدرسون اللغة العربية، في كثير من الجامعات، وهم أبناءٌ أعزاءُ علينا جميعا، يلتحقون بأقسام اللغة العربية، وهم يحملون معدلات متدنيةً في الثانوية العامة، وهذا يعنى أن ضعف المناهج، وقصورها عن الوفاء بما هو مؤمل فيها ومنها، يضاف إليه ضعفٌ أنكى وأشدّ، وهو ضعف الطلبة المتلقين لتلك المناهج، ومن البدهي، أن النتيجة المترتبة على هذا الخلل المُزْدَوج سوف تكون مضاعفة في سوئها، وفي مردودها في آن.

ولعلنا نلتمس الدليل على صحة ما نذهب إليه ودقته، في هذا المجال أيضا، من تجارب عملية قُيِّض لنا أن نخوضها دونما قَصْد، وعن غير ما عمْد، فقد أسندت إليَّ مهمة تدريس بعض مواد تخصص اللغة العربية لطلبة هذا التخصص سنوات طوالاً. وكان من بين الطلبة، في بعض السنوات، عدد قليل ممن اختار قسم اللغة العربية،

ومعدله في الثانوية العامة مرتفع (ثمانون فصاعداً)، وكان من بينهم أيضا من قضى في كلية العلوم، أو كلية الهندسة فصلا دراسيا، أو فصلين دراسيين، ثم تحوَّل، بتوق منه وشوق، إلى قسم اللغة العربية، فوجد هذا العدد القليل، فيما رغب واختار، ضالته المنشودة، فكان من المتفوقين في التحصيل، كما كان من المتألقين في الإبداع.

ونود أن نذكر في هذا السياق أيضا، أنه كانت تسند إليَّ، بين الفينة والأخرى، مهمة تدريس إحدى مواد اللغة العربية لطلبة كلية الطب، والهندسة، والعلوم، فكنت أُعنّي نفسي وأنا أبحث لهم عن موادَّ لغويةٍ وأدبيةٍ تتناسب ومستواهم، ولقد اضطررت، في كلّ الأحوال معهم، إلى الخروج عن المألوف المرسوم في المنهج العام لتدريس اللغة العربية، بحثاً عن مادة أرتفع بها نحوهم حتى تكتسب المحاضرة قيمتها وهيبتها، وأذكر أنني كنت أضع أسئلة بعض الامتحانات لهم، ثم أعرضها على نفر من المتخصصين في القسم، فيجد بعضهم، في جوانب منها، ما يمكن أن يكون موضع تساؤل، أو احتمال، أو اجتهاد، أما أولئك الطلبة، فكانوا يتنافسون فيما بينهم، للحصول على العلامة القصوى، بَلْه العالية.

ومهما يكن من أمر، فإن أولئك الطلبة، الذين تم التحاقهم بأقسام اللغة العربية، دونما رغبه منهم، سوف يتم تخرجهم، بعد فترة قد تطول، وقد تقصر، ثم يصبح معظمهم مدرسين للغة العربية في المدارس، فماذا عساهم يصنعون؟ سوف يتخرج في المدارس، على أيدي هؤلاء، بالمواصفات التي تحدثنا عنها آنفاً، طلبةٌ يُعدُّون العدة لدخول الجامعة، فيبدأ العمل والتعامل في الجامعة مع جيل جديد أكثر ضعفاً من سابقه، وهكذا دواليك.

وهناك ملحوظة أخرى ذات أهمية وخطورة في هذا المجال، وهي أننا كنا نشكو، فيما مضى، من أن المحاضرات التي تُلْقى في قاعات الدرس في كليات الجامعة وأقسامها المختلفة، باستثناء قسم اللغة العربية، كانت بالعامية، فكنا نأسى لذلك ونحزن، ونتمنى أن يتغير الحال إلى ما هو أفضل وأسمى، ولكن المشكلة الآن أصبحت تتمثل

في أن جانبا لا يستهان به من المحاضرات، التي يلقيها متخصصون على طلبتهم، في قسم اللغة العربية نفسه، أصبح يأخذ المنحى العامي، مما عقد الأمر، وجعل الإصلاح أكثر صعوبة وعسراً.

ولا نبالغ إذا قلنا، ونحن في سياق مصارحة الذات، ومكاشفة النفس، بهدف تشخيص الواقع تمهيداً لإصلاحه، إن بعض من يتصدى لمناقشة ما يوكل إليه من رسائل جامعية، في اللغة العربية، في مرحلة الدراسات العليا، يقوم بهذه المهمة، متخذاً من العامية وسيلة، أو معتصماً، في أحسن الأحوال، بالتسكين، وعدم الالتزام بقواعد اللغة، وما تقتضيه من تقنين وضبط، مما زاد الطين بلَّةً، وجعل الخرق أكثر اتساعا على أيِّ راقع.